الإهداء

الى أستاذى الجليل

عبد المنعم تليمة

نبتة صغيرة من غرسك

obeikan.com

obeikan.com

مقدمة

النقد الأدبى الاجتماعى تيار كبير يشمل كافة الجهود النقدية التى بدأت بكارل ماركس وفريدريك انجلز وتشيرنيشفسكى وجورج بليخالوف، مرورا بجورج لوكاتش وميخائيل باختين وتيودور أدورنو، حتى لوسيان جولدمان وتيرى ايجيلتون وبيير ماشيرى وموكاروفسكى.. الخ. بل إن البعض يعتبر أن جوليا كريستيفا، تنتمى أيضا الى هذا التيار العريض.[1]

والحقيقة أن النقد الاجتماعى يتضمن عناصر اختلاف وتناقض كثيرة، بما يمكن أن يقسمه الى عدة اتجاهات، تفصل بينها درجات من التباين والتنوع. فهناك، على سبيل المثال، خلاف كبير بين الوجهة التى يمثلها جورج لوكاتش وكلاسيكيو النقد الماركسى والاتجاه الذى تمثله مدرسة فرانكفورت (هربرت ماركيوزة، والتر بنيامين، تيودور أدونو، هوركهايمر). وهو نفس الاختلاف القائم بين كل من روجيه جارودى، وارنست فيشر، وبرتولد بريخت، من ناحية، وجورج لوكاتش من الناحية الاخرى. وإن كان على أرضية مغايرة عن الأرضية التى يرتكز عليها الاختلاف السابق.[2]

ولقد حاول بعض النقاد الاجتماعيين المحدثين الاستفادة من التطورات

التى ألمت بالعلوم الانسانية فى النصف الثانى من القرن العشرين، ومن هذه التطورات تلك النظريات والمناهج التى أحدثت ثورة شاملة فى طرق البحث والتحليل والموقف الفلسفى والجمالى. ولعل أبرزها المنهج البنيوى الذى أحدث طفرة هائلة فى البحث الجمالى والنقدى الأدبى. ومن أبرز الجهود فى هذه المحاولة هى تلك التى مثلتها جهود "لوسيان جولدمان" فى نظريته "البنيوية التكوينية"، وكذلك جهود كل من تيرى ايجلتون وبيير زيما، وربما أيضا موكاروفسكى. كما أن ميخائيل باختين يعد ضمن هؤلاء المنظرين الذين يقفون على تخوم أكثر من اتجاه فى الوقت نفسه.

غير أنه يبقى فى النهاية عامل قوى وأساسى يوحد كل رموز هذا الاتجاه ويحسم موقف هؤلاء "البينيين"، وهذا العامل هو الذى يتيح لنا ان نجرى هذه الدراسه تحت هذا العنوان، ذلك هو الموقف من قضية "الوعى" وعلاقته بـ"الوجود". ومن ثم، الموقف من الأدب فى ضوء علاقته بالواقع الاجتماعى – التاريخى، وذلك انطلاقا من مقولة كارل ماركس الشهيرة.. "ليس وعى البشر هو الذى يحدد وجودهم، بل ان وجودهم الاجتماعى هو الذى يحدد وعيهم"[3]

ان ما يوحد أصحاب الاتجاه الاجتماعى بمختلف أطيافهم، فى تعاملهم مع الأدب، هو رؤيتهم النابعة من مقولة ماركس السابقة. بما يعنى أن الأدب، عندهم، يعد أحد مكونات "البناء الفوقى" الذى يشتمل على مختلف عناصر "الوعى" من فن وأدب وفكر وقيم.. الخ. ومن ثم، فهو ناتج عن "الوجود" الاجتماعى – التاريخى. وعلى ضوء هذه الرؤية

يتم فهم الأدب وتحليله، لدى كل رموز هذا الاتجاه والمنضوين تحت لوائه.. يقول لوسيان جولدمان:

"كل سوسيولوجيا للفكر لابد أن تقبل بوجود تأثير للحياة الاجتماعية على الابداع الأدبى، وبالنسبة للمادية الجدلية، فإنها تعتبر ذلك مسلمة أساسية، مع إلحاحها بصفة خاصة على أهمية العوامل الاقتصادية، والعلاقات بين الطبقات الاجتماعية".[4]

وفى معرض رده على أولئك الذين يعترضون على هذا التصور بدعوى أن ربط القيم الروحية بالعوارض الاجتماعية والاقتصادية، يؤدى إلى الحط من شأن تلك القيم، يؤكد جولدمان أن مصدر هذه القيم بالذات هو الواقع الاجتماعى المعاش وليس أى شىء آخر، فيقول: "القيم الفكرية الحقيقية لا تنفصل عن الواقع الاقتصادى الاجتماعى، بل هى قائمة بالذات على هذا الواقع".[5]

غير أن هذا الارتباط بين الفكر والواقع الاجتماعى عند أصحاب الاتجاه الاجتماعى، ليس ميكانيكيا ولا مطلقا، بل متحرك على نحو جدلى متفاعل. وفى هذا يقول الدكتور/عبدالمنعم تليمة: "إن البناء الثقافى رغم أنه بصورة عامة انعكاس للبناء الأساسى المادى فى المجتمع، فإنه ليس انعكاسا آليا وليس تعبيرا سلبيا، فالعلاقة بين الاثنين علاقة تأثير وتأثير دائبة، قانونها التفاعل والتداخل". بل أكثر من ذلك، حيث يرى أنه "من الممكن فى مرحلة من مراحل تطور المجتمع أن تسبق الثقافة الأساس المادى وتعمل على تغييره وتقوده نحو هذا التغيير".[6]

ولكن هل يعنى ذلك انفصال البناء الثقافى "الذى يحتوى على كافة أشكال الوعى"، حسب التحديد السابق، فى هذه المرحلة التى يشير إليها الدكتور "تليمة"، عن الأساس المادى الاقتصادى؟ إن الاجابة عن ذلك تعتمد على منطق التفسير الذى يتعامل مع هذه الظاهرة، فهو يرى أن التفسير المادى الميكانيكى الضيق لا يستطيع أن يستوعب هذه الوضعية ولا قدرة له على تفسيرها، أما التفسير الجدلى الذى يتناول الظاهرة فى حركتها الخاصة، المرتبطة بالحركة العامة، فهو وحده القادر على فهمها. وإذا كان الأصل أن الأساس المادى – الاقتصادى للمجتمع هو المفسر لظواهره الثقافية، فإن حياة المجتمع من الخصوبة والغنى بحيث لا يمكن رد صورها الثقافية الى العامل الاقتصادى وحده ردا حرفيا جامدا.. "إذ يتضمن كل شكل من أشكال التعبير الثقافى جوانب فردية وعناصر ذاتية، ومبادرات انسانية خلاقة، تجعل منه ظاهرة مركبة معقدة، وتجعل تفسيره بعامل واحد تبسيطا مجانبا للعلم".[7]

فكما أن للمجتمع قانون حركتة العام، فإن للثقافة أيضا قانونها الذاتى النوعى والمستقل بصورة نسبية. وهذه هى الفكرة التى بحثها "أنطونيو جرامشى"، مؤكدا أن أية لحظة تاريخية اجتماعية معينة لا يمكنها أبدا أن تكون لحظة متجانسة، بل هى حتما مليئة بالتناقضات، وهى تكتسب شخصيتها وتصبح "لحظة تطور"، نتيجة لـ.. "سيطرة نشاط أساسى معين من نشاطات الحياة على بقية هذه النشاطات، بحيث يمثل هذا النشاط قيمة تاريخية".[8]

وهو الأمر الذى يمكن أن نستنتج منه إمكانية تزامن عناصر متناقضة من الاتجاهات الثقافية والأدبية التى ينتمى بعضها إلى الماضى، وبعضها الآخر إلى المستقبل، أو يشكل، بتعبير لوكاتش، "خمائر المستقبل". وتصبح، من ثم، مهمة القائمين على دراسة التناقض الاجتماعى هى تفسير هذه العناصر المختلطة والمتناقضة فى ضوء فهمهم لطبيعة الحركة التاريخية الاجتماعية فى تناقضاتها وتداخلاتها هى الأخرى. وهو أمر يحتاج إلى وعى عميق وفهم جدلى مرهف، قادر على التغلب على ما أسماه لينين بـ"خبث الواقع"، وأضيف أنا.. "خبث الظاهرة الثقافية، والأدب منها فى القلب".

إن الأدب عند الاتجاه الاجتماعى، إذن، إنما هو شكل من أشكال الانعكاس النوعى الذى ينظر إلى العمل الفنى بوصفه تدخلا فى صياغة العالم فنيا، على نحو أكمل وأشمل، وليس باعتباره مجرد انعكاس بارد له، إنه انعكاس يطرح "الجوهر الكلى"، الكامن تحت طيات هذا الواقع، والذى يشكل لبابه وحقيقة وجوده. فهذا الواقع الغنى الزاخر بالأحداث والملىء بالتفاصيل والنثريات الفرعية قد يذهب بالوعى الى مسارب فرعية يظنها المرء هى الواقع نفسه، بينما هى ليست الا قشرته أو جزءا بسيطا منه. ولذلك، قد يفقد الكثيرون بوصلة الفهم والوعى بمجرياته وباتجاهات الحركة الرئيسية فيه، والتى تصنع تحولاته وتفاعلاته، تلك الحركة التى قد لاتبدو ظاهرة على سطحه وتدق ملاحظتها لغير المسلح بمسبار المعرفة الجمالية الاجتماعية الحقة.

واذا لم يقبض الكاتب على "جوهر" هذا الواقع، أى يضع يده على القوى الفاعلة الرئيسية فى حركته والمتحكمة فى مجمل فاعلياته وأحداثه، والاتجاه الرئيسى لهذه الحركة، فانه رؤيته للعالم قد تنطمس وتتضبب وتتوه فى تلافيف وركام العناصر، وعندها لن يستطيع أن ينتج أدبا عظيما. وذلك لأن العمل الفنى ليس مجرد حكاية، تتكون من تفاصيل وأحداث، مهما بلغت من تشويق واثارة، وانما هو اختيار وانتقاء، هدفه ابراز حقيقة الوضع الانسانى الكلى من خلال الواقع الفردى والخاص.

فقد.. "يشبه العمل الفنى الكامل الحياة فى مراعاته للتتابع السببى، ولكنه لن يكون أكثر من سفر أخبار تعسفى إذا لم يكن هناك قلب لهذا الاتجاه".[9] أى إذا لم يكن هناك بؤرة مركزية تمثل بوصلة الطريق ووجهة الحركة، بحيث تمكننا من رؤية غير المرئى على السطح المباشر، أو رؤية "الجوهرى" و"الكلى" الفاعل فى الانسان والعالم.

واذا كان مفهوم الانعكاس يستحضر الى الذهن شكل المرآة، باعتبارها نظيرا للأدب على المستوى الفنى، فلا ريب أنه ليس مجرد مرآة من النوع المعهود، بل هو.. "مرآة وضعت بزاوية معينة"، كما يقول بيير ماشيرى، الذى يواصل.. "بحيث تكون معبرة فيما لا تعكسة بقدر ما هى معبرة فيما تعكسه".[10]

لقد أنتج هذا التصور للأدب فى علاقته بالعالم (أى بالوجود الاجتماعى) ما عرف فى عالم الأدب والنقد الأدبى باسم "الواقعية".

وهذا المصطلح يقدم نفسه للكاتب الأديب باعتباره طريقة فنية فى الكتابة الأدبية، وكذلك يتم التعامل معه باعتباره منهجا نقديا يحتوى على رؤية نظرية ومنطلق فكرى وآلية جمالية، فى الأن نفسه.

ويحاول هذا الكتاب، بتواضع، تقديم قراءة تحليلية لأدبيات ومنجزات هذا الاتجاه النقدى، الذى ساهم فى صنع جانب رئيسى ومعترف به من مشهد الفكر الجمالى والنقدى الحديث والمعاصر. واضعا فى الاعتبار أن هذا الاتجاه الاجتماعى انما هو كيان متحرك ومتحول. فكما أنه يرى أن الوعى تال على الوجود ومنفعل به، وأن الأدب والفن جزء من البناء الفوقى المتأثر، جوهريا، بتحولات البناء التحتى المتمثل فى التشكيلة الاجتماعية – التاريخية، بمكوناتها من قوى الانتاج وعلاقات الانتاج. لكل ذلك فان النقد الأدبى الاجتماعى، شأنه فى ذلك شأن كل منجزات العقل البشرى، متطور ومتحول بفعل استجابته الحتمية لمجمل التطورات التى تتم على الأصعدة الاجتماعية والتكنولوجية وآثارها الايديولوجية والمعرفية العامة.

ولذلك فان هذا الاتجاه لم يقل كلمة نهائية ولم يطرح رؤية مطلقة، بل قدم منطلقات نظرية معرفية، ومفاهيم نقدية أدبية، متوخيا أن تقدم اسهامها فى تقديم معرفة جمالية أقرب للحقيقة العلمية، والدقة النظرية، من وجهة نظره. ولعلى قد أوردت فى بداية هذه المقدمة بعضا من الاتجاهات والتفريعات التى ينقسم اليها هذا الاتجاه، بما يعنى أنه نسبى ومتغاير، حتى فى داخله.

ولذلك فاننى أعتبر أن ما أقوم بتقديمه، هنا، ليس منجز الاتجاه الاجتماعى فى النقد الأدبى، بل منجز المرحلة الكلاسيكية لدى بعض أعلامه، وأبرزهم جورج لوكاتش. موقنا بأهمية الأجيال التالية من النقاد الاجتماعيين الذين ظهروا فى مرحلتى البنيوية وما بعدها. منتويا تقديمهم فى كتاب آخر، قد يكون بمثابة جزء ثان، يكمل بانوراما النقد الاجتماعى، بماضيه وحاضره.

وسيلاحظ القارىء الكريم أننى أتدخل، كثيرا، بالتأويل والتفسير والتحليل والربط بين النصوص المقتبسة، فى محاولة منى لصنع سبيكة متينة من المعرفة الجمالية الاجتماعية، وبناء رؤية على قدر معقول من الدقة والاكتمال والتكامل، فى الآن نفسه. وربما أكون قد تعسفت فى بعض تأويلاتى أو تزيدت فى بعض تحليلاتى أو أسبغت من وعيى الخاص على النصوص ما قد لا تقبله، لكنى اجتهدت قدر ما وسعنى الجهد، لتقديم عمل، أتمنى أن يكون نافعا ودافعا نحو مزيد من البحث والدرس للفكر النقدى، بعامة، ولهذا الاتجاه الغنى المهم، بخاصة.

ولقد قسمت الكتاب الى فصول ثلاثة ومقدمة:

أما الفصل الأول فقد خصصته لدراسة تاريخ الواقعية، التى تعد العنوان النقدى للاتجاه الاجتماعى. وفيه تتبعت ظروف النشأة وعوامل التطور، ومن ثم عرجت على الموقف الفكرى والجمالى، ومن ثم النقدى. حيث درست العلاقة بين الواقعية والطبيعية، ثم العلاقة بين الفن والمجتمع، فى ضوء الواقعية.

أما الفصل الثانى فقد درست فيه الموقف العقائدى للواقعية، بقدر من التفصيل لدى مفكر يعد من أهم مفكرى علم الجمال الاجتماعى، ألا وهو جورج لوكاتش. وفى هذا الفصل درست عددا من المفاهيم الحاكمة لرؤيته النظرية. وهى مفهوم "المنظور"، فى ضوء علاقته بمفهوم "الانعكاس الفنى"، ثم مفهوم "النمط" و"الشخصية النمطية"، ثم درست مفهومى "الشكل" و"المضمون"، وأخيرا: رؤيته لكل من "الواقعية النقدية" والواقعية الاشتراكية".

ثم يأتى أخيرا الفصل الثالث، الذى خصصته لدراسة بعض قضايا الرواية، باعتبارها النوع الأكثر حظوة لدى نقاد الواقعية. حيث درست مفهوم الرواية عندهم. ثم الشخصية الروائية. وأخيرا درست رؤيتهم لأساليب السرد الروائى.

وأعترف أن هذا الفصل الأخير كان يحتمل توسعة واضافات، تكتمل بها دراسة رؤيتهم للفن الروائى. كما أعترف بأننى لم أتعرض لموقفهم من الشعر، وآمل أن يكون ذلك موضع بحث قادم.

صلاح السروى

المعادى – فى 25 نوفمبر 2014